﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزمر: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

دعـــاء الـلـه عـنـد الـضُّـرِّ، والإعـــراض عنه عـنـد زوالـــه، فسادٌ في الطَّبع وتناقض

لما بيَّن الله تعالى فيما سبق فسادَ القول بالشِّرك، وبيَّن أنَّ الله تعالى هو الَّذي يجب أن يُعبَد؛ بيَّن في هذه الآية أنَّ طريقة هؤلاء الكفّار الذين يعبدون الأصنام متناقضةٌ، وذلك لأنَّهم إذا مسَّهم نوعٌ من أنواع الضُّرِّ؛ لم يرجعوا في طلب دفْعِهِ إلّا إلى الله، وإذا زال ذلك الضُّرُّ عنهم؛ رجعوا إلى عبادة الأصنام، ومعلوم أنَّهم إنَّما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضُّرِّ؛ لأنَّه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضُّرِّ، وإذا عرفوا أنَّ الأمر كذلك في بعض الأحوال؛ كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كلِّ الأحوال، فثبت أنَّ طريقتهم في هذا الباب متناقضةٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضُرٌّ﴾: أصل الضَّرِّ: امتلاءٌ برخوٍ مجتمعٍ يلزمه التَّضييق أو الضَّعف والنَّقص[2]، فالضُّرُّ: الهُزالُ، وهو ضَعفٌ، والضِّرُّ: تَزَوُّجُ المَرْأةِ عَلى ضَرَّةٍ، وهو نَقصُ نصيب كلٍّ منهما من الزَّوج، وضَرَّةُ الدّابَّةِ: ضرْعُها المُمتَلِئُ، وهو لا يَخلو مِنَ اللَّبَنِ، والضَّريرُ: الَّذي به ضَرَرٌ من ذهابِ عَينِه، أو ضَنَى جِسمِه، والأوَّل نقصٌ، والثّاني ضَعفٌ وهُزالٌ، والاضطرار: الاحتياجُ إلى الشَّيءِ بسبب نقصٍ أو ضَعفٍ، والضّيق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 427.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضرر).

والضاروراء: القحط والشدَّةُ، وكلُّ ذلك نقص وتضييق وضَعف، والضرُّ خِلاف النَّفْع، يُقالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضَرًّا ثُمَّ يُحْمَلُ عَلى هَذا كُلُّ ما جانَسَهُ، أو قارَبَهُ[1]، والضَّرُّ - بفتح الضّاد - المَصْدَرُ، والضُّرُّ - بضمِّها - الاسمُ، وقيلَ: هُما لُغَتانِ كالشَّهْد والشُّهْد، فإذا جَمَعْتَ بَينَ الضَّرِّ والنَّفع؛ فَتَحتَ الضّادَ، وإذا أفردت الضُّرَّ؛ ضَمَمت الضّادَ؛ إذا لَم تَجْعَلْهُ مَصْدَرًا، كقولِكَ: ضَرَرْتُ ضَرًّا؛ هَكَذا تَستَعمِلُهُ العَرَبُ[2]، والضُّرُّ: سوءُ الحال بإطلاق، إمّا في النَّفس لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمّا في البدن لعدم جارحة أو نقص، وإمّا في حالة ظاهرةٍ من قلَّة مال وجاه، وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 84]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ محتمل لثلاثتها[3].

2) ﴿مُنِيبًا﴾: أصل النَّوْب: عَوْدٌ إلى الشَّيءِ ومُضامَّةٌ له مَرَّة بعد أخرى[4]، أو هو: اعتيادُ مَكانٍ ورُجوعٌ إلَيهِ - أي: مرَّة بعد مرَّة حتى يصير عادة[5]، والنّائِبَةُ: المُصيبةُ، وجمعها نوائب، وهي ما ينزل به من المهمّات والحوادث؛ لأنَّها تنزل بهذا مرَّة وبغيره أخرى فهي من المعاودة، والنّائِبَةُ: النّازلةُ[6]، والإنابة إلى الله تعالى: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][7]، ومعنى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، أي: راجعًا إلى الله بالدُّعاء لا يدعو غيره[8].

3) ﴿خَوَّلَهُۥ﴾: (خول) أصل يَدُلُّ عَلى تَعَهُّدِ الشَّيءِ[9]، والتَّخويل: إعطاء الخَول، أي: إعطاء ما يصير له خولًا، وقيل: إعطاء ما يحتاج أن يتعهَّده، من قولهم: فلان خالُ مالٍ، وخابِلُ مالٍ، أي: حسن القيام به[10]، والخَول ما أعطى اللهُ ﷻ الإنسانَ مِنَ النِّعَم، والخَول: العَبيدُ والإماءُ وغَيرُهُم مِنَ الحاشيَةِ[11]، ومعنى ﴿خَوَّلَهُۥ﴾، أي: أعطاه، ومَلَّكه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(3) الراغب، المفردات: (ضر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نوب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نوب).
(7) الراغب، المفردات: (نوب).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 171.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خول)، والحديث رواه البخاري بنحوه في كتاب العِلْمِ، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم، كي لا ينفروا، وفي كتاب الدعوات باب الموعظة ساعَةً بعدَ ساعَة.
(10) الراغب، المفردات: (خول).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (خول).

4) ﴿أَندَادًا﴾: أصل النِّدِّ تباعُدُ بَعْضِ الشَّيءِ من بَعْضِه امتدادًا إلى أعلى أو تفرُّقًا وشرودًا، ومن ذلك النِدُّ: النَّظير، والمِثل والشِّبْه، كأنَّه أصله المُطاول له، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22]: نُظَراء وعُدَلاء[1]، أي: الآلهة الَّتي جعلوها مستعلية معه، ومطاولة له في الألوهيَّة، وهي أبعد ما تكون عنها، والجذر (ندد) يَدُلُّ عَلى شُرودٍ وفِراقٍ، ونَدَّ البَعيرُ نَدًّا ونُدودًا: ذهبَ عَلى وجْهِهِ شارِدًا، ومِنَ البابِ النِّدُّ والنَّديدُ: الَّذي يُنادُّ في الأمرِ، أي: يَأتي برأيٍ غَيرِ رَأيِ صاحِبِهِ[2]، ونَديدُ الشَّيءِ: مُشارِكه في جَوْهَره، وذلك ضربٌ من المُماثلة، فإنَّ المِثْل يُقال في أيِّ مشاركةٍ كانت، فكلُّ نِدٍّ مثلٌ، وليس كلُّ مثلٍ نِدًّا[3]، و(النِّدُّ) هو الشَّبيه والضدُّ أيضًا، فحقيقة (النِّد) المِثْل المناوئ، ولهذا يقال للضِّدِّ: (ندٌّ)، ثم استُعمل في المِثل، وإن لم يكن هناك مخالفة[4]، ومعنى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ.

5) ﴿تَمَتَّعْ﴾: (متع) أصل يَدُلُّ عَلى مَنفَعَةٍ وامتِدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ، ومِنهُ: استَمتَعتُ بِالشَّيءِ، والمُتعَةُ والمَتاعُ: المَنفَعَةُ[5]، ويقال لما يُنتفع به في البيت: متاعٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرعد: 17]، وكلُّ ما يُنتفع به على وجه ما؛ فهو مَتاعٌ ومُتْعَةٌ[6]، ومعنى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: تمتَّع بالسَّلامة من العذاب في زمن كفرك أو متكسِّبًا بكفرك تمتُّعًا قليلًا، أو زمنًا قليلًا، فأنت آيل إلى العذاب؛ لأنَّك من أصحاب النّار[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يبيِّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ الإنسانَ إذا أصابَه ضُرٌّ وشِدَّةٌ؛ دعا رَبَّه راجعًا إليه ومخلصًا له؛ ليَكشِفَ عنه ضُرَّه، ثمَّ إذا كشَفَ اللهُ ضُرَّه، وأعطاه نِعمةً منه، نَسيَ الضُّرَّ الذي كان يتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه مِن قَبلُ، وجعَلَ لله شُرَكاءَ ونَظائِرَ يَعبُدُها؛ ليُضِلَّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نوب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ند).
(3) الراغب، المفردات: (ندد).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 2/ 230.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(6) الراغب، المفردات: (متع).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.

النّاسَ بذلك الفعلِ عن سَبيلِ اللّهِ وعن دينِه الذي ارتضاه لعِبادِه، قُل أيُّها النَّبيُّ لهذا الإنسانِ الذي جعَلَ للّه شُرَكاءَ في العبادةِ: تمتَّعْ بكُفرِك زَمانًا قَليلًا أو متاعًا قليلًا، إنَّك مِن أصحابِ النّارِ الملازِمينَ لها، والخالِدينَ فيها[1].

الإقبالُ على الله عند الحاجة والتولّي عنه عند زوالها من صفة أهل الكفر

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾:

الواو استئنافيَّة[2]، والجملة بعدها مستأنفة؛ لبيان تناقضِ الكافر مع نفسه؛ حيث إنَّه يكفر باللّه عند الرَّخاء، فإذا ما ألَمَّت به شدَّة؛ هُرِع إلى ربِّه يدعوه؛ ليخرجه منها، فالاستئناف "شروعٌ في بيان قبح الإنسان في حالتَي الضُّرِّ والسُّرور"[3]، وتناقضه مع نفسه في التَّفرقة بينهما حين يتعامل مع ربِّه.

جمع الواو بين الاستئناف والعطف

ويمكن أن تكون الواو عاطفة، والجملة بعدها معطوفة على جملة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ لاشتراك الجملتين في الدَّلالة على أنَّ اللّه منفردٌ بالتَّصرُّف مستوجب للشُّكر، وعلى أنَّ الكفر به قبيح[4].

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

الشَّرط مفهوم من استهلال الآية بـ (إذا)، وهي ظرف في الغالب لما يستقبل من الزَّمان، ومتضمِّنة مع ظرفيَّتها معنى الشَّرط، ويأتي التَّعبير بها حال كان المقصود من الكلام التَّعبير بما يقطع بوقوع المظروف مستقبلًا، أو الدَّلالة على أنَّه يقع كثيرًا، وما هنا هو مِن هذا الباب الثاني، أي: إنَّ أكثرَ حالات الإنسان وخصوصًا الكافر منه أنَّه لا يجأر بالدُّعاء إلى اللّه تعالى، ولا يتوجَّه إليه بقلبِهِ

الدَّلالة على الاستقبال والدَّوام والاستمرار

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير المحرر: 29/ 72.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 396.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 484.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 342.

إلّا حينما تصيبه نائبةٌ من نوائب الدَّهر، فإذا أنجاه الله منها، وصرفها عنه؛ رجع إلى حالتهِ الأولى، وكأنَّه ليس هو نفس الإنسان الَّذي كان عمّا قريب مبالغًا في الالتجاء إلى ربِّه.

بلاغةُ التَّعبير بـ(إذا) ودلالة التَّعبير بها دون (إن):

تحقُّق وقوع ما بعدها وكثرته وتكراره

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ (إذا) التي تفيد تحقُّق وقوع ما تدخل عليه مستقبلًا، أو الدَّلالة على كثرة وقوعه دون (إن) التي يعبِّر بها في الشَّرط في المشكوك في وقوعه أو الَّذي إن وقع؛ فهو قليل ونادر؛ لأنَّ وقوع الإنسان في الضُّرِّ أمرٌ متحقَّق، ويقع كثيرًا[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل المسِّ:

المسُّ أوَّل درجات الإصابة وأدناها، فكيف لو أصيب الإنسان بمعظمها

ممّا يلفت النَّظر في دقَّة التَّعبير القرآنيِّ هو إيثارُه التَّعبير بالمسِّ الَّذي يعبِّر عن اللَّمس الرَّقيق، وهو أوَّل درجات الإصابة وأدناها، دون التَّعبير بالإصابة، فلم يقل: (وإذا أصاب الإنسان ضر)، فيشعر بعمق الإصابة والإيلام؛ وذلك للدَّلالة على سرعةِ الالتجاء إلى الله من قبل الإنسان في أوَّل مراحل إصابته بالضُّرِّ وأدناها، وهي المدلول عليها بالمسِّ، فكيف إذا تعمَّقت الإصابة، وبلغ الضُّرُّ غايته؟ وهذا من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى.

نكتةُ التَّعبير بالفعل الماضي في جملة الشَّرط ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾:

تحقُّق وقوع المسِّ

(إذا) تدلُّ على تحقُّق ما تدخل عليه، أو كثرته وتكراره، ودخلت على الفعل الماضي (مسَّ)؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع الفعل، فإنَّ التَّعبيرَ بالماضي في مجال الحال أو الاستقبال يفيد تحقُّق وقوعه وتأكيده، كما أخبر ربُّنا عن السّاعة أو عن يوم القيامة بالفعل الماضي في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، وعلى هذا يكون قد اجتمعت الدَّلالة على تحقُّق وجود الفعل في المستقبل

(1) ذكر الفرّاء أنَّها تجيء للدَّوام والدَّأب، ويُنظر: السامرائي، معاني النحو: 2/ 207.

بأمرين: التَّعبير بـ(إذا) دون (إن) أوَّلهما، وثانيهما دخول (إذا)، والتعبير عن المستقبل بالفعل الماضي.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بالمسِّ عن الإصابة:

التَّنبيه بالأدنى على الأعلى

في التَّعبير بالمسِّ في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ﴾ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ حيث استُعمِل المسُّ في معنى الإصابة، وسرُّ العدول عن التَّعبير بالإصابة إلى التَّعبير بالمسِّ، هو أنَّ التَّعبير بالمسِّ أرقُّ من التعبير بالإصابة، فإذا عبَّر به؛ فقد اكتنف ما هو أعلى منه من باب أولى، فيكون من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، كما مضى ذكره.

دلالةُ التَّعبير بـ(ال) في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

احتمالها للعهد والجنس والاستغراق

(ال) في لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يمكن أن تكون للعهد، أي: الإنسان الكافر المعهود بذلك الأمر، والمدلول عليه بقوله في آخر الآية: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، ويمكن أن تكون لاستغراق الجنس، أي: جنس الكفار، ويمكن أن يكون لاستغراق الأفراد، أي: كل أفراد الإنسان، فهو في الكافر أصالة، وفي المؤمن تبعًا، على قدر ضعف الإيمان فيه، فإذا اشتدَّ ضعف الإيمان عنده؛ كان أقرب ما يكون في حاله إلى الكافر، وإذا قوي إيمانه؛ ضعف هذا الحال فيه، وإن كان السّياق يرجِّح المعنى الأوَّل مع احتمال الثّاني والثّالث.

نكتةُ تقديم المفعول على الفاعل:

الاهتمامُ بالمفعول

قدَّم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾؛ لأنَّ المفعول هنا - وهو الإنسان - هو محورُ الحديث ومحلُّ الاهتمام، وليس الضُّرَّ، ولذا قدَّمه.

نكتةُ وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾:

ذِكرُ الإنسانِ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لأنَّ المقصود به المخاطَبون بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

تَعۡمَلُونَۚ﴾، فكان مقتضى الظّاهر، أن يقال: وإذا مسَّكم الضُّرُّ؛ دعوتم ربَّكم... إلخ، فعدل إلى الإظهار؛ لما في معنى الإنسان من مراعاة ما في الإنسانيَّة من التَّقلُّب والاضطراب والنّسيان وكفران النِّعم، إلّا من عصمه الله بالتَّوفيق، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيّٗا ٦٦﴾ [مريم: 66]، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾ [القيامة: 3]، وغير ذلك، ولأنَّ في اسم الإنسان مناسبةً مع النِّسيان الآتي في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾[1].

التقلُّب والاضطراب والنسيان صفات مركوزةٌ في طبع الإنسان عامَّة والكافر خاصَّة

دلالةُ التَّعبير بلفظ الضُّرِّ:

مضى في شرح المفردات أنَّ الضُّرَّ بِالضَّمِّ: الهزالُ وسوءُ الحالِ بإطلاق، إمّا في النَّفس لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمّا في البدن لعدم جارحة أو نقص فيه، وإمّا في حالة ظاهرة من قلَّة مال وجاه[2]، وهذا يُبرز أنَّ إيثار استخدام لفظ الضُّرِّ هو ما يدلُّ عليه اللَّفظ من عموم في الدَّلالة على مطلق الإيلام بكلِّ أنواعه النفسي والبدني والمالي، الحسّي والمعنوي، "فيدخل فيه جميع المكاره سواء أكان في جسمه أم في ماله أم في أهله وولده"[3].

لفظُ الضُّرِّ يدلُّ على مطلق الإيلام النَّفسي والبدني والمالي

نكتة تنكير ﴿ضُرٌّ﴾:

يحتمل تنكير ﴿ضُرٌّ﴾ وتنوينه أن يكون للتَّعظيم والتَّكثير، أي: إذا مسَّ الإنسان ضرٌّ عظيم شديد كثير، لا يستطيع أحدٌ كشفه إلّا الله تعالى، ويحتمل أن يكون للتَّحقير والتَّقليل، أي: وإذا مسَّ الإنسانَ ضرٌّ قليلٌ ضئيلٌ أو حقير؛ دعا ربَّه، والسياق يرجِّح الثاني لقوله: ﴿مَسَّ﴾.

الجمعُ بين التَّعظيم والتَّكثير من جهة، والتَّحقير والتَّقليل من جهة أخرى

نكتةُ اختيار ﴿دَعَا﴾ دون نادى:

اختيار لفظ ﴿دَعَا﴾ بدلًا من نادى؛ للدَّلالة على أنَّ صاحب هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 342، 343.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرر)، والرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 427.

الضُّرِّ، ملهوف مستغيث، ولذلك فإنَّه يتَّجه إلى مَن يعينه، ويكشف الضُّرَّ عنه وحده، كما أنَّ في الدعاء إسرارًا ومناجاة، وأمّا النِّداء؛ ففيه رفْعُ الصَّوت غالبًا، وفي الدُّعاء من معنى الخصوصيَّة ما ليس في النِّداء غالبًا، فأغلب النِّداء يكون عامًّا، ثمَّ إنَّ في لفظ دعا معنى القرب الحسّي والمعنوي، بخلاف نادى فإنَّ أغلب النِّداء يكون للبعيد أو ما في حكمه.

صاحب الضُّرِّ ملهوف مستغيث يتمسَّك بمن يكشف الضُّرَّ عنه، ويحسن الأدب معه

فائدةُ مجيءِ جواب الشَّرط ماضيًا ﴿دَعَا﴾:

جاء جوابُ الشَّرط فعلًا ماضيًا ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، مع جواز مجيئه مضارعًا؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا الدُّعاء وسرعته، فإنَّ الكافر إذا مسَّه الضُّرُّ؛ سارع بدعاء ربِّه عند مسِّ الضُّرِّ مباشرة، فكأنَّه ليس بين مسِّ الضُّرِّ والدُّعاء فاصلٌ، وهذا السِّرُّ من أسرار عدم دخول فاء الجواب على الفعل الماضي، أي: إذا مسَّه ضرٌّ لم تتَّجه همَّته إلّا إلى ربِّه، فدعاه، واستجار به، وناداه، ولم يؤمِّل في كشف الضُّرِّ سواه، فدلَّت جملة الجزاء على تناقض الإنسان مع نفسه في الإعراض حينًا والالتجاء حينًا، وأنَّه في حال الضَّعف والحاجة لا يملك إلّا أن يصدقَ مع نفسه، فيتَّجه إلى من يملك وحده كشْفَ الضُّرِّ، وهو ربُّه الَّذي لن يخزيَه إن التجأ إليه؛ فهو وحده ملجأ المضطرّين.

سرعةُ الدُّعاء وتحقُّقه

سرُّ إيثار التَّعبير باسم (الرَّبِّ):

آثر القرآن اسم الربوبيَّة؛ لدلالة هذا اللَّفظ على سَعة العطاء، وكثرته وتنوُّعه، فهو سبحانه الذي ربّاه بصغار النِّعم قبل كبارها، وأعطاه عطاء واسعًا، في شتى نواحي الحياة، ومن دلائل ربوبيَّته تعالى كشْفُ الضُّرِّ عن مَن مسَّه الضُّرُّ، ودفْعُ الأذى عنه، وإجابة دعاء المضطرِّ والمظلوم، وإن كان كافرًا، فكيف بأهل الإيمان؟.

الدَّلالة على كثرة العطاء وسعته

نكتةُ إضافةِ لفظ الرَّبِّ إلى ضمير يعود على الإنسان:

الكافر متحقِّق من عطاء الرُّبوبيَّة إيجادًا وإمدادًا، صغيرًا كان أو

كبيرًا، وإذا مسَّه ضرٌّ؛ لم تتَّجه همَّته إلّا إلى ربِّه، فدعاه، ولم يؤمن في كشف الضُّرِّ سواه، وكأنَّه ربُّه وحده، فكان عليه أن يستحي من ربِّه بعد كلِّ ذلك أن يجعل له ندًّا، وهو صاحب الفضل عليه.

الإشـارةُ إلى استفادة الكافر مـن عـطـاء الرُّبوبيَّة

دلالةُ التَّعبير بلفظ الإنابة:

الإنابة هنا تعني الرُّجوعَ إلى الله تعالى بالدُّعاء لكشف الضُّرِّ ورفع البلاء، وأوثرَ التَّعبيرُ بها في قوله: ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ لدلالة اللَّفظ على الكثرة والاعتياد، فإنَّ أصل (نوب) يدلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه - أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يصيرَ عادة - ولذا قيل للنَّحْل: النّوب، قالوا: وسُمّيَتْ بِهِ لِرَعْيِها ونَوْبِها إلى مَكانِها[1]، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الإنسان عامَّة والكافر خاصَّة يعتاد الرُّجوع إلى ربِّه واللُّجوء إليه عند النَّوائب، "مرَّة بعد مرَّة بمجاذبة النَّفس والفطرة الأولى"[2]، فإذا صرفها الله تعالى عنه؛ عاد أدراجه الأولى إلى ما كان عليه من قبل من اتِّخاذ الأنداد والشُّركاء، وكأنَّه لم يدعُ ربَّه أبدًا إلى ضرٍّ مسَّه، وفي استعمال الإنابة هنا أيضًا دلالةٌ على أنَّه كان على التَّوحيد بالفطرة قبل أن ينتكس بتحوُّله من الإيمان إلى الكفرِ بنفسه أو بفعل غيره كأبويه، فهو ينوبُ، ويؤوب عند كلِّ ضرٍّ إلى توحيد الفطرة.

الإنـابـةُ تـكـرار اللُّجوء إلى الله تـعـالى بحسب تكرار وقوع الضُّرِّ

نكتةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُنِيبًا﴾:

يدلُّ اسم الفاعل غالبًا على رسوخ الصِّفة في الموصوف، والجمع بين ذاته وفعل واقع منه راسخ فيه مجرَّد عن الزَّمان، كأنَّه لم يتَّصف إلّا بهذه الصِّفة في حال الضُّرِّ، فتثمر صفة الإنابة - الَّتي فيه - دعاءً صادقًا يدعو به ربَّهُ.

رسـوخُ الإنـابـةِ في الـكـافـر حال الضُّرِّ

فائدة التَّعبير بالحال في ﴿مُنِيبًا﴾:

غالب الحال أن يكون وصفًا لا يدوم إلّا وقتًا قليلًا، فإذا قلت:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 89.

رأيت عليًّا مبتسمًا؛ دلَّ ذلك على أنَّ ابتسامَهُ غير دائم، إنَّما كان في حال رؤيتك له، بحيث لا يدوم هذا الوصف أبدًا، فدلَّ إيثار الحال في التَّعبير عن الإنابة ﴿مُنِيبًا﴾، على أنَّ صفة الإنابة لا تدوم معه أبدًا، إنَّما تكون في حال مسِّ الضُّرِّ فقط حتى تدفعَهُ تلك الحال لأن يدعو ربَّه.

الحال وصف لا يدوم إلّا وقتًا قليلًا

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيِّ مع قوله تعالى في الرّوم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾:

قال تعالى في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم: 33]، فلوحظ أنَّ التَّعبير فيها بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ [الروم: 33]، بينما التَّعبير في آية الزُّمر بلفظ الإنسان، وذلك لأنَّه في آية الرّوم قد سبقها إخبار عامٌّ بصيغة الجمع عن الظّالمين في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: 29]، والظّالمون منهم الكافرون والمؤمنون، ثم قال بعدها: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]، فناسب أن يكون الإخبار فيها بلفظ الناس لمناسبة العموم الَّذي قبلها في السّياق ذاتِه، ومضى نسق الكلام بعد ذلك بصيغة الجمع في قوله: ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: 33]، والذي يؤكِّد هذا، ويقوّيه أنَّ جواب الشَّرط الثاني في آية الرّوم جاء بالحُكم على البعض دون الكلِّ، مصدَّرًا بـ(إذا) الفجائية: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ﴾ [الروم: 33]، وأمّا آيةُ الزُّمر؛ فالخطاب فيها متَّجه إلى الكفّار وحدهم، فهُم المرادون في لفظ الإنسان المرادِ به العمومُ العرفيُّ - كما مضى بيانه - إذ "هو وصفٌ للجنس بحالِ بعضِ أفرادِه"[1].

آيةُ الرّوم في عموم الظّالمين المؤمن منهم والكافر، وآية الزُّمر في خصوص الكفار

نكتةُ تعدية اسم الفاعل بـ (إلى) في قوله: ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾:

عدّي اسم الفاعل منيبًا بـ (إلى) التي تدلُّ على الغاية؛ للدَّلالة

الله وحده غاية الكافر في ضرِّه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244.

على أنَّ الكافر حال الضُّرِّ لم تكن له غاية في ضُرِّه إلّا الله وحده، كأنَّه قال: دعا ربَّه، وأناب إليه ذاهبًا بدعائه وإنابته إليه وحده.

سرُّ التَّعبير بالضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾:

استحضارُ الكافر معنى الرُّبوبيَّة في دعائه وإنابته

الضَّمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، وفي استحضار الكافر معاني الرُّبوبيَّة حال دعائِهِ وإنابته، دلالة على يقينه بأنَّه لا يكشف الضُّرَّ أحدٌ سواه سبحانه.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

كثرةُ المعاني الممكنة من الكلمة الواحدة

﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ إشراكهم بالله بعد الدُّعاء والإنابة وحصول رحمته أعجبُ من إشراكهم السّابق، ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنى التَّعجيب من تجدُّد إشراكهم[1]، أو أنَّ التَّرتيب هنا هو ترتيب في الإخبار على سبيل التَّرقّي فيما يتعجَّب به من تحوُّلهم المعبِّر عن تناقضهم واضطرابِهم، ولا مانع يمنع من أن تكونَ للتَّراخي الزَّمني بالنَّظر إلى حال الداعي وقت الاضطرار، ثم تحوُّله وإعراضه بعد زوال الاضطرار.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾:

الدَّلالةُ على كثرة هذا الصِّنف من النّاس، وكثرة تخويل الله النِّعم لهم

في مجيء ﴿إِذَا﴾ في الشَّرط دون (إن) في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ دلالة واضحة على أنَّ هذا الأمر يقع كثيرًا من الإنسان الذي يعود إليه ضمير المفعول في ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ حتى صار ذلك الموقف منه – أي: الإعراض مع الإنعام بعد الالتجاء حال وقوع الضُّرِّ – إلفًا وعادة، وهذا مقام لا تناسبه (إن) الَّتي تدخل على القليل والنّادر والمشكوك فيه، وإنَّما تناسبه ﴿إِذَا﴾ الَّتي تقع على محقَّق الوقوع، وما يقع كثيرًا، أي: إنَّه "لمّا كان الرَّخاء محقَّقًا، وهو أكثر من الشِّدَّة؛ عبَّر بأداة التَّحقُّق"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 98.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 463.

دلالةُ التَّعبير بالتخويل في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

الدَّلالةُ على إنعام اللهِ المتكرِّر لكلٍّ مِن المؤمن والكافر

أصل (خول) يَدُلُّ عَلى تَعَهُّدِ الشَّيءِ، والمراد به ما أعطى اللهُ ﷻ الإنسانَ مِنَ النِّعَم ابتداءً دون مقابل من العبد ولا سؤال، فهو محضُ إنعام متكرِّر خالص منه سبحانه، "يُقال: خَوَّلَه نِعْمَةً، أي: أعطاها إيّاه ابتداءً مِن غيرِ مُقتَضٍ، ولا يُستَعمَلُ في الجزاءِ بل في ابتداءِ العَطيَّةِ"[1]، على أنَّ هذا الإنعام لا يقع مرَّة واحدة، ولكن مرَّة بعد مرَّة، ولأجل هذا التَّكرار للفضل والإنعام كرمًا منه سبحانه أوثِرَ التَّعبير عنه بالتَّخويل دون الإعطاء[2].

نكتةُ إيثارِ الفعل الماضي في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

الدَّلالة على تحقُّق وقوع التَّخويل

أوثِرت صيغةُ الماضي في ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ الدالَّة على تحقُّق الوقوع؛ لأنَّه سبحانه يرزق كلَّ عباده ابتداء، مؤمنهم وكافرهم، وينعم عليهم بمقوِّمات حياتهم، وإن عصوه، أو كفروا به.

سرُّ نصبِ الفعل (خوَّل) لمفعولين:

الإيجازُ بتضمين خوَّل معنى أعطى، الدّالِّ على معنى جملتين بجملة واحدة

نصب الفعل خوَّل مفعولين؛ لأنَّه بمعنى أعطى، عومل معاملته في الإعراب، فنصب مفعولين، ليجمع القرآن بين معنى أعطى الَّتي تدلُّ على معنى التَّفضُّل في العطاء، ومعنى خوَّل الذي يدلُّ على معنى تكرار العطاء، والابتداء من غير مقتضٍ؛ لأنَّ التخويل لا يُستعمل في المجازاة، إنَّما يُستعمل في ابتداء العطاء[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بضمير الفاعل المستتر في ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

معرفةُ الفاعل والعلم به

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ بدلًا مِن: (ثمَّ إذا خوَّلته)، أو (إذا خوَّلناه)، بمعرفة الناس جميعًا بالفاعل، وأنَّه هو الله بداهة؛ إذ إنَّه المنعم الحقيقيُّ، وكلُّ النِّعم منه تعالى، وهذه المعرفة جعلته لا يحتاج إلى ذكر الفاعل.

---

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 413.

(2) ابن التمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 484.

(3) السمين، الدر المصون: 9/ 413.

سرُّ مجيء المفعول الأوَّل ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

عدمُ اللَّبس في المعنى

آثر القرآنُ الإتيانَ بالمفعول الأوَّل ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ دون التَّصريح به، كأن يقول: خوَّل الإنسان، لعدم اللَّبس؛ إذ إنَّ النّاس جميعًا يعلمون أنَّ المُخَوِّلَ هو الله الخالق، وأنَّ المُخَوَّلَ هو الإنسان المخلوق، ثم اتِّصال الضَّمير بالفعل إشارة إلى اتِّصال النِّعم بالإنسان وتكرارها في كلِّ وقت.

نكتة تنكير ﴿نِعْمَةً﴾:

التَّعظيم والتَّكثير

نكتة تنكير ﴿نِعْمَةً﴾ هو التَّعظيم والتَّكثير؛ لكونها تتكرَّر، وتقع مرَّة بعد مرَّة، فإنعام الله على عبادة بحاجيات حياتهم ومقوِّماتها متكرِّرٌ مستمرٌّ لا ينقطع.

بلاغةُ الطِّباق بين ذكر الضُّرِّ والنِّعمة:

شدَّة وضوح المعنى بذكر الضِّدَّين

بين كلمتي الضُّرِّ والنِّعمة طباقٌ معنويٌّ غايته وضوح المعنى بذكر الضِّدّين، وإبراز الفرق بين حالتي العسر واليسر في تقلُّب الإنسان بينهما؛ إذ إنَّه في حال العسر يجأر إلى ربِّه، ويلتجئ إليه، فإذا تبدَّل الحال إلى حال يسرٌ؛ نسي إيمانه بالله ودعاءه إيّاه، فهذا الإنسان متناقض مع نفسه متضادٌّ معها كالتَّضادِّ الحاصل في مقابلة الضُّرِّ بالنِّعمة.

بلاغةُ التَّعبير بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾:

ابتداءُ النِّعم كلِّها مِنَ الله

إنَّما عبَّر القرآنُ بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ الَّتي تدلُّ على الابتداء المطلق، أو ابتداء الغاية، أو غير ذلك من المعاني؛ للإشارة إلى أنَّ النِّعم كلَّها ناشئةٌ منه سبحانه لا من غيره، فهو مبدأُ كلِّ نعمة ومُبدِئها.

نكتةُ مجيءِ الضَّمير المجرور المتَّصل في ﴿مِّنْهُ﴾:

اتِّصالُ نِعم الله بالإنسان وعدم انقطاعها

عبَّر القرآنُ بقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ بدل أن يقول: (من الله) أو (من

ربِّه)؛ للعلم بمرجع الضَّمير من جهة، وللدَّلالة على اتِّصال النِّعم بالإنسان، وعدم انقطاعها عنه، ولو كان كافرًا من جهة أخرى.

نكتةُ التَّعبير بشبه الجملة ﴿مِّنْهُ﴾:

النِّعمُ كلُّها كائنةٌ منه تعالى بتخويل أو غيره

شبه الجملة ﴿مِّنْهُ﴾ يجوز أن تكونَ متعلِّقةً بـ(خَوَّل)، فيكون ابتداء تخويل النِّعم منه سبحانه، ويجوز أن تكونَ متعلِّقةً بمحذوف على أنَّه صفةٌ لـ ﴿نِعْمَةً﴾[1]، أي: نعمة كائنة أو ناشئة منه، فهذا يدلُّ على أنَّ إيجادَ النِّعم وابتداءَها قبل التَّخويل ناشئٌ منه سبحانه، وكلا الأمرين مقصودٌ في الآية.

نكتةُ مجيءِ جواب الشَّرط ماضيًا في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ﴾:

تَحَقُّقُ وقوعِ النِّسيان

التَّعبيرُ عن المستقبل بالفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق وقوع الفعل؛ لأنَّ الفعل الماضي قد حدث، وانتهى، ولا يشكُّ أحد فيه، بخلاف الفعل المستقبل فإنَّه قد يُشَكُّ فيه، فإذا عبَّر عنه بالماضي؛ دلَّ ذلك على تحقُّق وقوعه.

فائدة عدم وجود الفاء في جواب الشَّرط:

سرعةُ نسيان الإنسانِ ربَّه بمجرَّد تخويله من نِعَمه

لم تأتِ الفاءُ في جواب الشَّرط؛ لأنَّ الفعل هاهنا فعل ماضٍ، والفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق الوقوع إذا عُبِّر به عن المستقبل - كما سبق - وهذا يدلُّ مع تحقُّق الوقوع على سرعته، كأنَّه بمجرَّد وجود النِّعمة لم يكن ثمَّة وقتٌ فاصل بين تخويله النِّعمة وبين نسيانه ربَّهُ الَّذي خوَّله تلك النِّعمة.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾:

التَّفخيم المستفاد من الإبهام في (ما)

الظاهر أنَّ ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الَّذي، وتعود على الضُّرِّ، أي: نسي الضُّرَّ الَّذي كان يدعو الله إلى كشْفِهِ، أو تعود إلى الله تعالى، فتكون ﴿مَا﴾ بمعنى (مَنْ)، أي: نسي ربَّه الذي كان يتضرَّع إليه،

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 413.

ويبتهل في كشف ضرِّه، وعليهما فالجملة بعدها صلة الموصول لا محلَّ لها من الإعراب، ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، أي: نسي دعاءه ربَّه وقت مسِّ الضُّرِّ، والمصدر المؤوَّل في محلِّ نصب مفعول به لـ ﴿نَسِيَ﴾، وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿نَسِيَ﴾، أي: نسي ما كان فيه من الضُّرِّ، و﴿مَا﴾ نافية، نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصًا لله مقصورًا من قبل الضَّرر، أي: إنَّ دعاءه السّابق كان كالعدم، وعليه فالجملةُ مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب[1].

نكتةُ إقحام ﴿كَانَ﴾ بين ﴿مَا﴾ والفعل في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

إعراض الإنسان عن ربِّه حال النِّعمة سجيَّة فيه وطبع

إقحام ﴿كَانَ﴾ في الجملة في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ دالٌّ على أنَّ إعراض الكافر عن ربِّه حال النَّعماء هو سجيَّة فيه، وطبع لازم له، لا ينفكُّ عنه بحال؛ بسبب كفرِه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدْعُوٓاْ﴾:

استحضارُ الحال الماضية لتأنيب صاحبها على تحوُّله بعدها

آثر التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدْعُوٓاْ﴾؛ استحضارًا للحالة التي كان الإنسان الكافر والجاحد عليها حالَ وقوعِ الضُّرِّ به، وهو أنَّه كان يكرِّر الدُّعاء، ويُلِحُّ فيه؛ طلبًا للنَّجاة وكشف الضُّرِّ، وفي ذلك مزيد تأنيب له وزجر.

نكتةُ حذف مفعول ﴿يَدْعُوٓاْ﴾:

علمُ كلِّ الخلق به

حذفُ مفعول ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ اختصارًا للعلم به؛ لأنَّ المدعوَّ هنا - بلا ريب - هو الله تعالى المدلول عليه بقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّ الإنسان وقت الضُّرِّ لا يمكن أن يلجأ إلى أحد إلّا إلى الله ﷻ، ولا يدعو أحدًا سواه.

فائدة تعديةِ الفعل ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ بالحرف (إلى):

سرُّ تعدية الفعل ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ بالحرف (إلى) الذي يدلُّ على الغاية،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 188، والخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 23/ 357.

الدَّلالةُ على أنَّ اللهَ ﷻ غايةَ النَّاس جميعًا مع تضمُّن الفعل معنى التَّضرُّع والابتهال

هو الإشارة إلى أنَّ الله هو غاية الناس جميعًا، حتى الكافر يكون غايته وقت الضُّرِّ، ولتضمُّن الفعل ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ معنى التَّضرُّع والابتهال، أي: نسي الكفّار ما كانوا يبتهلون، ويتضرَّعون إليه من قبل، وهو الله تعالى، فالضَّمير هنا مرادٌ به الله تعالى، وعليه فإنَّ لفظ ﴿مَا﴾ أقيم مقام (مَن)؛ لما في الإبهام المستفاد من ﴿مَا﴾ من التَّفخيم[1].

بلاغةُ التَّعبير بالضَّمير المتَّصل بحرف الجرِّ في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

اتِّصال الكافر بالله تعالى وقت الضُّرِّ مع اتِّساع المعاني واتِّحاد الغاية

يمكن أن يكونَ المعنى نسي ما كان يدعو به إلى الله متَّجهًا إليه، أو نسي الضُّرَّ الذي كان بسببه يتَّجه إلى الله داعيًا مبتهلًا متضرِّعًا، أو نسي الله الذي كان يدعوه، وكلُّ هذه المعاني محتملةٌ صحيحة.

بلاغةُ اختيار ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

ابتداءُ الإنسان على الفطرة وتقارب وقتَي النِّسيان والإنابة

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ابتدائيَّة، والظَّرف ﴿قَبۡلُ﴾ مبنيٌّ على الضَّمِّ في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّه سبقه حرف الجرِّ ﴿مِن﴾، ثمَّ إنَّه منبئ عن مضاف إليه محذوف، والتَّقدير: من قبله، وسرُّ اختيار حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ الابتدائيَّة الدَّلالة على أنَّ ابتداء الإنسان كان على الفطرة، وهو يعود إلى تلك الفطرةِ في كلِّ حال يمسُّه فيها الضُّرُّ، وكأنَّه لم يكن بين النِّسيان والإنابة فارق زمنيٌّ يذكر، فبمجرَّد أن أناب خوَّله الله نعمة، وبمجرَّد تخويل النِّعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل، كأنَّه لم يكن ثمَّة زمان فارق بين الإنابة إلى الله وبين النِّسيان.

نكتةُ حذف المضاف إليه في ﴿قَبۡلُ﴾:

العلمُ به مع تعدُّد المعاني

﴿قَبۡلُ﴾ مضاف، والمضاف إليه محذوف، وتقدير المحذوف يحتمل جملةً من المعاني، **الأول:** نسي ما كان يدعو إليه من قبل الضُّرِّ، وهو الظّاهر، وسرُّ حذفه هو العلم به لسبق ذكره في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ﴾، ويؤيِّد ذلك أيضًا التَّصريح به في قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ

(1) التفتازاني، حاشية على الكشاف: 6/ 369.

قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12]. **الثاني**: أن يكون التَّقدير: من قبل كشف الضُّرِّ، **الثالث**: أن يكون التَّقدير: مِنْ قبل تخويلِ النِّعمة[1]، **الرّابع**: أن يكون التَّقدير من قبل كلِّ ذلك، أي: من قبل الضُّرِّ ثم كشفه وتخويلِ النِّعمة.

نكتةُ التَّعبير بالواو في ﴿وَجَعَلَ﴾:

الجمع والتَّشريك بين المعطوف والمعطوف عليه

الواو في قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ عاطفة للجملة بعدها على جملة ﴿نَسِيَ﴾ الَّتي قبلها، بقصد الجمع والتَّشريك بينهما، أي: بين النِّسيان والجَعْل؛ لكون كلٍّ منهما تصلح أن تكون علَّة للأخرى والأخرى معلولة لها، أي: هو من باب "عطف المعلول عَلى العلَّة أو بالعكس"[2]، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب؛ لكونها معطوفة على جملة جواب الشَّرط الَّتي لا محلَّ لها من الإعراب، فيكون المعنى على هذا: جعل للّه أندادًا؛ لأنَّه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، أو نسي ما كان يدعو إليه من قبل؛ لأنَّه جعل للّه أندادًا.

بلاغةُ التَّعبير بالجعل بدل الاتِّخاذ وغيره:

احتمال الجعل معنى الإيجاد والتَّصيير بلفظ واحد

إنَّما قال: جعل للّه أندادًا، ولم يقل: اتَّخذ مع اللّه أندادًا، أو غير ذلك؛ للدَّلالة على أنَّ الجعل هاهنا قد يكون ابتداء لشيء لم يكن موجودًا، فتكون بمعنى أوجد، وتكون لشيء موجود، لكنَّه ليس ندًّا للّه، فقد جعله للّه ندًّا، ويكون المعنى صَيَّرَ هذا الموجود ندًّا للّه تعالى، والفارق بين المعنيين، أنَّ (جعل) الأولى الَّتي بمعنى (أوجد) تنصب مفعولًا واحدًا، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وجعل الثانية الَّتي بمعنى: (صَيَّرَ وغَيَّرَ) تنصب مفعولين كقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الكفار ليسو على نهج واحد، فمنهم من ينشئ إلهًا،

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 414.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 485.

ويجعله لله ندًّا، كأن يتَّخذ إلهًا من حجر أو من غير ذلك، ومنهم من يتَّجه إلى شيء موجود، فيجعله لله ندًّا، كمن يعبد النُّجوم أو الملائكة أو غير ذلك.

بلاغة حذف الضَّمير في (جعل):

الحذفُ للعلم به بداهة

ضمير الفاعل في (جعل) محذوف، وهو يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جعل هذا الإنسان - الذي نسي كشف الله تعالى الضُّرَّ عنه عندما دعاه وقت الحاجة - لله أندادًا وشركاء.

فائدةُ تقديم شبه الجملة على المفعول الصَّريح أندادًا:

التَّقديم للأهمِّ ولأنَّه محلُّ الإنكار والعجب

قدَّم هنا الجار والمجرور اللفظ الأجل ﴿لِلَّهِ﴾ على المفعول الصَّريح ﴿أَندَادًا﴾، فقال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ولم يقل: (وجعل أندادًا لله)؛ لأنَّ مجرَّد جعْلِ الأنداد ليس محلَّ الإنكار، إنَّما جعل الأنداد له سبحانه هو محل الإنكار؛ ولذا قدَّمه، فهو الأهمُّ، كما أنَّ هذا التقديم يقتضي نفي أن يكون لله ﷻ أندادًا - كما زعموا - والتَّعجُّب من كونهم فعلوا ذلك، والإنكار عليهم فيه.

نكتةُ الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾:

تربيةُ المهابة في القلوب، والتَّنبيه عَلى فرط الغواية وكمال الحماقة

كان المقتضى في التَّعبير أن يقولَ: (وجعل له)، لكن أوثر الإظهار، وعُدِل عن الإضمار؛ "لتربية المهابة في قلوب السّامعين لما في اسم الجلالةِ من صفات الكمال والجلال والجمال، وللتَّنْبيه عَلى فرط الغواية وكمال الحماقة"[1].

بلاغةُ تنكير: ﴿أَندَادًا﴾:

نكَّر الأنداد، فقال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ولم يقل: (الأنداد) تحقيرًا للأنداد، وتقليلًا من شأنها، فهي أحقرُ، وأقلُّ من أن تُعرَّف.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 485.

بلاغةُ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾:

احتمالُ الكلام أكثر من معنى

اللّام في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ تحتمل التَّعليلية، وذلك أظهرُ في قراءة ضمِّ الياء ﴿لِّيُضِلَّ﴾، وهي قراءة الجمهور، والأرجح أن تكون لام العاقبة، وهي أقوى في قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمروٍ (ليَضِلَّ) بفتح الياء، أي: ليفعلَ الضَّلالَ بنفسهِ، وعليه فالمعنى: ليزدادَ ضلالًا، أو يثبتَ عليه، فتكون كاللام في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8][1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: (ليَضِلَّ) على قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمروٍ:

سلوكُ الإنسانِ سُبُلَ الضَّلال يؤولُ به إلى سوءِ العاقبة

في قوله: (ليَضِلَّ) - بفتح الياء على قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمروٍ - استعارة تبعيَّة في الحرف؛ إذ استعار الحرف من العلَّة إلى العاقبة، أي: شَبَّه لام العاقبة بلام العلَّة، ثم حذف لام العلَّة؛ لبيان أنَّ سلوكَ الإنسانِ سُبُلَ الضَّلال علَّةٌ وسببٌ يؤول به إلى سوء العاقبة.

توجيهُ القراءاتِ في الفعل ﴿لِّيُضِلَّ﴾:

الجمعُ بين إضلال نفسه وإضلال غيره

قرأ الجمهور ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، والمعنى: ليُضِل غيره من النّاس، غير مكتفٍ بضلال نفسه، ولكن متعدّيًا به إلى إضلال غيره، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمروٍ (ليَضِلَّ) بفتح الياء، والمعنى: ليوجد الضَّلال في نفسه، أو ليزداد ضلالًا على ضلال، أو ليثبت على ما فيه من الضَّلال، وعلى القراءة الأولى تكون اللّام للعلَّة، وعلى القراءة الثانية تكون اللّام للعاقبة، كما تقدَّم.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع: ﴿لِّيُضِلَّ﴾:

الكافرُ حريصٌ على الاستمرار في الضَّلال وعلى إيقاع غيره فيه معه

عبَّر بالفعل المضارع في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ﴾؛ للدَّلالة على حرص ذلك الإنسان على إضلال غيره حرصًا يدعوه إلى تَكرار محاولات الإضلالِ والابتكار والتَّجديد في وسائله، وهذا على قراءة ضمِّ الياء،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244، والسمين، الدر المصون: 9/ 414.

وأمّا على قراءة فتْحِها؛ فلتنزيلِهِ منزلةَ الحريص على الاستمرار على الضَّلال والاستزادة منه، كحرْصِه على إضلال غيره.

نكتةُ حذفِ المفعول في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾:

لإفادة العمومِ وللعلم به مع الإيجاز

أمّا ضمير الفاعل على كلتا القراءتين؛ فإنَّ المراد به الإنسان المذكور في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وهو مكتفٍ بفاعله على قراءة فتح الياء، وأمّا على قراءة ضمِّ الياء - وهي قراءة الجمهور - فإنَّ المفعول محذوف، والتَّقدير: ليُضلَّ كلَّ الناس، أو ليُضلَّ غيره، وإنَّما حذف المفعولُ اختصارًا؛ لكونه معلومًا من السّياق، مع الإيجاز الَّذي هو مقتضى البلاغة، وللدَّلالة على العموم، وهذا واضح من حذف المفعول.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾:

تجاوزُ الكافرِ الفطرةَ والشَّرعَ معًا

إنَّما عدّى الضَّلالة بـ ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، الَّتي تفيد المجاوزة؛ للدَّلالة على أنَّ الكافر إنَّما تجاوز كلَّ حدود الفطرة والعقل والشَّرع، حين أراد أن يستمرَّ على ضلاله، وأراد أن يضلَّ كلَّ الناس سواه معه.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ السَّبيل:

تقريبُ المعنى والصّورة بتشبيه المعنوي بالمحسوس الذي يرى ويُعاش

في قوله: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّة؛ إذ شبَّه الإيمان بالله تعالى - لكونه الحقَّ الذي لا محيد عنه - بالسَّبيل القويم الَّذي ينبغي أن يُسلك دون غيره لاعتداله واعوجاج ما سواه، ثم حذف المشبَّه، وأبقى المشبَّه به.

نكتةُ إضافة السَّبيل إلى ضمير يعود في الظاهر على اسم الجلالة:

أُضيف السَّبيل إلى ضمير يعود في الظاهر على اسم الجلالة في قوله: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ تفخيمًا لسبيل الله، وتعظيمًا لشأنه؛ لأنَّه سبيل الحقِّ الَّذي لا سبيل للحق غيره، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]، وبقدر التَّشريف الذي

أفادته هذه الإضافة، كان التَّعريض والتَّنديد بموقف الإنسان المندَّد به في الخطاب الذي آثر البُعد والإعراض والتَّجاوز عن سبيل الله الَّذي دلَّت عليه ﴿عَن﴾، ويجوز أن يعودَ الضَّمير في قوله: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ على قراءة فتح الياء: (ليَضِلَّ) إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي ينبغي للإنسان أن يدوم عليها، أي: ليَضِلَّ الكافر نفسه عن سبيلها التي فُطِرَت عليه من التَّوحيد بجعلها لله أندادًا.

الإضافة للتَّشريف والتَّفخيم لسبيل الله وهو سبيل الحقِّ

نكتةُ فصل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾:

الفصل في قوله: ﴿قُلْ﴾ على الاستئناف البيانيِّ على أنَّه جواب لسؤال مقدَّر، فكأنَّه ﷺ، قال لربِّه: ماذا أفعل مع ذلك الإنسان الَّذي يقع منه هذا النِّسيان، وما ترتَّب عليه من الكفر والإعراض؟ فقال: قل له: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، والمخاطَب بـ(قل) هو رسول الله ﷺ، أي: قل له يا أيُّها النَّبيُّ ذلك القول، وكلُّ من كان على ميراث النُّبوَّة الصَّحيح له من هذا الأمر نصيب، أو يكون الخطاب فيه عامًّا لكلِّ مخاطَبٍ على ميراث النُّبوَّة، فهو مأمور أن يقولَ ذلك لكلِّ مَن كان على شاكلة هذا الإنسانِ الكافر، وهو أمرٌ له بتبليغ ذلك التَّهديد الَّذي دلَّت عليه جملةُ مقول القول المستهلَّة بالأمر الذي فيه من التَّهديد والوعيد لذلك الإنسان الضّالِّ المُضِلِّ ما هو ظاهر، وهو قوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾[1]؛ إذ محالٌ أن يأمر الله تعالى أحدًا من عباده بالكفر، فضلًا عن التَّمتُّع به.

التَّهديدُ والوعيدُ لمن يحيد عن الطَّريق السَّديد

دلالةُ الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾:

لَيْسَ المُرادُ مِن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ الأمْرَ، بَلِ الزَّجْرُ، وأنْ يُعَرِّفَهُ قِلَّةَ تَمَتُّعِهِ في الدُّنْيا، ثُمَّ يَكونُ مَصيرُهُ إلى النّارِ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 465، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 428.

فائدةُ الأمر بقوله: ﴿قُلْ﴾:

إنَّما قال الله ﷻ له: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مأمور أن يقول هذا الكلام بلفظه؛ ليكون أشدَّ تأثيرًا في هذا الكافر.

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعْ﴾:

الأمـرُ للتَّهديد والوعيد

مضت الإشارة إلى أنَّ هذا الأمر ﴿تَمَتَّعْ﴾ يحمل معنى التَّهديد والوعيد للكافر، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فصلت: 40]، فهو ليس أمرًا على سبيل الطَّلب، فمحال أن يطلب الله منه التَّمتُّع بالكفر على سبيل الحقيقة؛ لأنَّ الأمر بالتمتُّع بالكفر هو أمر بالكفر[1]، والله تعالى لا يأمر به ولا بغيره من المناهي أبدًا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: 28].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿تَمَتَّعْ﴾:

التَّهكُّم مع التَّهديد

لما كان الأصل في الأمر أنَّه للوجوب، واستحال الوجوب هاهنا؛ لأنَّ الله لا يأمر بالكفر، وكان الأمر هاهنا للتَّهديد والوعيد، فيكون في الأمر بقوله: ﴿تَمَتَّعْ﴾ استعارة تهكُّميَّة؛ "إذ الجامع بينه وبين الأمر - الحقيقي - التَّقابل فيكون من الاستعارَة التهكُّميَّة بتنزيل التَّضاد منزلةَ التَّناسبِ بواسطة التَّهكُّم، والحاصل أنَّ ﴿تَمَتَّعْ﴾ بمنزلة (لا تتمتَّع بكفرك)، عبَّر بالأمر تهكُّمًا"[2]، أي: لا تتمتَّع بكفرك؛ لأنَّك من أصحاب النّار، بل ارجع عن كفرك هذا حتى تبتعدَ عن هذه النّار.

بلاغةُ الباء في قوله: ﴿بِكُفْرِكَ﴾:

تعـدُّد معاني الكلام تبعًا لتعدُّد معنى الباء

الباء في قوله: ﴿بِكُفْرِكَ﴾ هي باء السَّببيَّة، أي: إنَّ ذلك التَّهديد كائنٌ وقائم بسبب كفرك بمَن أنعمَ عليك وجحودك فضله عليك،

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 329.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 486.

وإنقاذه لك وقت الحاجة، أو الباء للمصاحبة، أي: مصاحبًا كفرك، أو الباء ظرفيَّة، أي: تمتَّع مدَّة كفرك، أو للملابسة المعنويَّة، أي: ملابسًا كفرك، بحيث يحيط بك إحاطة اللِّباس بالجسد[1]، وقيل: الباء للتَّعدية على الاستعارة التَّبعيَّة في الباء.

نكتة إضافة الكفر إلى ضمير المخاطَب:

توجيه العتاب والتَّهديد بالخطاب أقسى من توجيهه بالغيبة

نكتة إضافة الكفر إلى ضمير المخاطَب، وهو الكافر؛ ليكونَ الخطابُ أشدَّ بأسًا عليه وأشدَّ تنكيلًا، فتوجيه العتاب والتَّهديد بالخطاب أقسى من توجيهه بالغيبة؛ ليكون رادعًا له؛ إن كان في جوفه قلبٌ يعي، ويشعر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: 37].

سرُّ إفراد الضَّمير الَّذي يعود على الكافر:

إرادةُ الجنس ومناسبة سياق الآية

إنَّما أفرد الضَّمير في قوله: ﴿بِكُفۡرِكَ﴾ لإرادة الجنس، والمراد: قل لكلِّ واحد من ذلك الجنس هذا الكلام، أو أنَّه روعي في الإفراد سياقُ الآيةِ كلِّها من أوَّل لفظ الإنسان، والأفعال التي جاءت بعده، وكلُّها تعود على مفرد ﴿دَعَا﴾ - ﴿رَبَّهُۥ﴾ - ﴿إِلَيۡهِ﴾ - ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ - ﴿نَسِيَ﴾ - ﴿وَجَعَلَ﴾ - ﴿لِّيُضِلَّ﴾؛ لمواءمة لفظ الإنسان، والتَّقدير: (قل تمتعوا بكفركم قليلًا إنَّكم من أصحاب النار)، وعلى مثل هذين الاعتبارين جاء إفراد كاف الخطاب بعد الخبر عن الإنسان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢﴾ [القيامة: 10 - 12][2].

نكتةُ حذف متعلِّق التَّمتُّع:

حُذِفَ المتعلّق للتَّعميم

حذف متعلِّق التَّمتُّع في قوله: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾؛ لإرادة التعميم؛ لتذهب النَّفس في تقديره كلَّ مذهب، والتَّقدير: "تمتُّعًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.

قليلًا، أو زمانًا قليلًا"[1] ونحو ذلك، ويمكن أن يكون سببُ الحذف هو الدَّلالة عليه بسياق التَّهديد، والتَّقدير: تمتَّع بالسَّلامة من العذاب في زمن كفرك، أو متكسِّبًا بكفرك تمتُّعًا قليلًا، فأنت آيل إلى العذاب؛ لأنَّك من أصحاب النّار[2].

نكتةُ ذكر ﴿قَلِيلًا﴾ وتنكيرها:

كـلُّ زائـلٍ قليلٌ وإن بدا كثيرًا

عبَّر بالقليل وصفًا لمحذوف؛ لأنَّ تمتُّع الكافر إنَّما يكون في الدُّنيا، وهو متاعٌ زائل، وكلُّ زائل قليل، وإن طال زمانه؛ إذا ما قيس بنعيم الآخرة الَّذي يدوم، ولا ينقطع، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: 196 - 198]، وقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ ٣٨﴾ [التوبة: 38]، ولمّا كان المقدَّر نكرةً؛ جاءت الصِّفة نكرة، وفي الموصوف المحذوف قولان: **الأوَّل:** أنَّه مصدر محذوف، وقد نابت عنه صفته، والتقدير: تمتُّعًا قليلًا، **والثاني:** أنَّه ظرف محذوف، والتَّقدير: (زمنًا قليلًا)[3].

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

بيانُ المقصود من الجملة السّابقة أو تعليلها

فُصلت جملة: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾؛ لكونها بيانًا للتَّهديد المقصود من جملة: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو الإنذار بالمصير إلى النّار بعد مدَّة الحياة[4]، فيكون بين الجملتين (كمال اتِّصال)، وجائز أن تكونَ علَّة لها، أي: لأنَّك من أصحاب النّار؛ إذ مقصود الأمر بالتَّمتُّع القليل هو إشعارُهم بأنَّ الكفر نوعُ تشهّي لا سند له،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.
(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 23/ 358.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345.

وتقنيطهم[1] وتيئيسهم من النَّعيم الدّائم الذي يكون للمؤمنين في الآخرة، فيكون بين الجملتين شبه كمال اتِّصال، أو ما يُسمّى الاستئناف البياني، بتقدير سؤال: ولِمَ هذا التَّقنيط بتقييد التَّمتُّع بكونه قليلًا؟[2] فكان الجواب: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: لأنَّك كذلك.

فائدةُ تتابع المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

الـرَّدُّ على الكفر والـجـحـود بتحقق عـذابِ الله

تتابعت المؤكِّدات في هذه الجملة، وهي: (إنَّ) التوكيديَّة، واسميَّة الجملة، والتَّعْبير بـ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، ومثل هذا يفيد التَّأكيد والمُبالَغَة، كما هو في قوله تعالى: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: 29]؛ إذ الظّاهر لأجعلنَّك مسجونًا، أو: لأسجنَّنك، أي: إنَّك في النار، مقيم فيها، أو (إنَّك صاحب النّار)[3] الملازم لها.

فائدة استعمال ﴿مِنْ﴾:

المـبـالـغـةُ في الـدَّلالـة على كثرتهم

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تبعيضيَّة؛ لأنَّ أصحاب النار كثيرون، والمخاطَبون هنا هم بعضُ أصحابِها ومن جملتهم، كأنَّه يريد أن يقولَ: إنَّ الذين سيدخلون النّار من الكفار كثيرون، وأنت واحدٌ منهم، لا تستطيع أن تدفعَ عنك عذاب النار مثلهم، والتَّعبير بقوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فيه بلاغةٌ ومبالغةٌ "فإنَّ قولك: زيد من العلماء، أبلغُ مِن زيد عالم"[4]؛ لأنَّه قد يكون عالمًا، لكنَّه لا يرقى أن يصل إلى صفِّ العلماء.

نكتةُ استعمال لفظ الصُّحبة مع النار من خلال الإضافة:

الملازمةُ الأبديَّة الطَّويلة

وعبَّر بالصُّحبة؛ إذ جعلهم أصحاب النّار لأبديَّة ملازمتهم لها، فإنَّ الصُّحبة تشعر بطول الملازمة[5]، فهُم أصحابها الذين

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 329، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 232.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 486.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 38، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 487.
(4) ابن التمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 486.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345.

لا يفارقونها أبدًا؛ لأنَّهم مخلَّدون فيها على الدَّوام، وملازموها ملازمة الصّاحب للصّاحب، ولهذا أضافهم بوصف الصُّحبة إلى النّار تصويرًا لهذه الملازمة.

بلاغة التَّعبير بـ(ال) في قوله: ﴿ٱلنَّارِ﴾:

المبالغةُ في الجزاء تبعًا للمبالغة في الفعل

(ال) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ للجنس، فهُم أصحاب النّار على إطلاقها، وفي ذلك مبالغةٌ من حيث إنَّ النار دركات، وهم سيكونون في بعض دركاتها، لكنَّ لسوءِ صنيعهم ومبالغتهم في الإسراع إلى الكفر والجحود، بعد مبالغتهم في اللُّجوء والدُّعاء حال وقوع الضُّرِّ بهم، بالغت الآية كذلك، فأنزلتهم منزلةَ الملازمين لجنس النّار بكلِّ دركاتها.

بلاغةُ الكنايةِ أو المجاز في قوله: ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

أبديَّةُ ملازمة هؤلاء للنّار

قوله: ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ كناية عن طول الملازمة بل أبديتها، فهُم لمكثهم الأبديِّ في النار صاروا كأنَّهم أصحابها، أو أنَّها استعارة مكنيَّة؛ إذ شبَّه النّار بإنسان له أصحاب يلازمون صحبته، فحذف المشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وهو الصُّحبة، وأسندها إلى المشبَّه على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخيُّليَّة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»